مناقشات

الغرب ليس غرباً واحداً والشرق ليس كذلك رغم أنف الإيديولوجيا

(تعقيباً على مقال مسعود ضاهر، الآداب ٥/٦، ٢٠٠٠، ص ٩٠ ـ ٩٤)

عمر كوش

يحلو أحياناً أن يضع الباحثُ أموراً كثيرة في موقع واحدٍ، فلا نجد في تعميمه هذا سوى الخلط وعدم الدقة. وهذا ما فعله مسعود ضاهر حين ناقش ملف الآداب («الثقافات والحضارات: بين الحوار والصراع») في جريدة **الحياة** (السبت، ٦ أيار ٢٠٠٠) حيث اعتبر أنّ «الغرب في ملف الآداب يكاد يكون نسخةً مكرورةً في جميع المقالات؛ فهو غربٌ استعماريٌّ بشع». ثم أعاد الكرّة، لكنْ بروح سجاليّةٍ هذه المرّة، تُصوِّر نفسَها وكأنها فوق الإيديولوجيّات، في مجلة الآداب (العدد ٥/٦، ٢٠٠٠، ص ٩٠ ـ ٩٤)، حين اعتبر أنّ «الهمّ الإيديولوجيّ حاضر بكثافة، ولم يَغِبْ لحظةً واحدةً عن كامل صفحات الملف». إنّ هذا الاعتبار يعكس مشكلةً تتواتر كثيراً في كتابات عدد من المفكرين العرب، وهي مشكلة التسمية واضطراب المفهوم. ففي أيامنا هذه أضحت «الإيديولوجيا» تهمةً جاهزةً وسهلةَ الإلصاق بمن نريد أو بمن نختلف معه فكرياً. فأيُّ اختلافٍ فكريّ مع الفكر الواحديّ، أو مع مَنْ توقف فكرهُ عند حدود وعي الستينيّات ومنطقها، يُوصَم بالايديولوجيا. وهذا يعكس نزعةً، كانت، في الستينيّات، تتهمّ كلّ خروج عن منطق السلطة، بما فيها سلطة الايديولوجيا، بالرجعيّ والبرجوازيّ والإمبرياليّ.

لقد أضحى «الغرب» مقولة تضليليّة، تَكْشف عن متخيلٍ لصورةٍ ما رسمتْه الثنائيةُ الميتافيزيقيةُ: «الذات/الآخر»، وما تفرَّع عنها من ثنائيّات. فقد نشأتْ مقولةُ «الشرق» التي هي بدورها أيضاً مقولةٌ تضليليّة، ونشأتْ مثل هذه التسميات الثنائيّة التقابليّة والتراتبيّة التي أريد لها أن تصبح مفاهيمَ، إفرازاً من إفرازات ميتافيزيقا التمركز على الذات... على أن نَفْهم هذا التمركز بمعناه الواسع والشامل، الذي لا يقتصر على ميتافيزيقا التمركز الغربيّ وحده. وحين يقف الباحث على حيثيات التمركز الغربيّ على الذات، فإنّ ذلك لا يعني بناءَ تمركزيةٍ مضادة: فكل الحضارات تضع نفسها في مركز العالم، وتبني صوراً نمطية عن الذات والآخر. بل إنّ الحضارات، وفق ما يقول «فرنان بروديل»، هي «تجاهل وإنكار، احتقارٌ وكراهيةٌ للآخر، لكنها ليست هذا فقط، لكونها أيضاً تضحيةً وشجاعةً وتراكماً للثروات الثقافيّة» (فرنان بروديل، **البحر الأبيض المتوسط الفضاء والتاريخ**، ١٩٨٥). ولا أعتقد أنّ هذا الكلام استعاضةٌ عن «نقد الذات» المتخلفة بنقد «الآخر»، إلا إذا سلكنا منطق التعميم والتشويش. إنّ هذا النمط من التفكير يخفي مسبَّقاتٍ جاهزةً للحكم، يضعها أو يلصقها في الموضع الذي يراه مناسباً، متذرِّعاً بمفردات خطابٍ إيديولوجيٍّ انتهى عصرُه المعرفيّ... مع العلم أنه قام على «النقد الموضوعيّ للواقع» المتخيَّل ايديولوجياً، وكان مفعماً بالجمل الثوريّة الفارغة من أيّ محتوى حقيقيّ، لكنّه مايزال ينادي بقيام «مشروعٍ نهضويٍّ على أسس وحدوية وقومية صلبة»؛ وهو بعيد عن هذا كلّه.

لا شك أنّ «الغرب» ليس كياناً واحداً، كما أنّه لم يكن كذلك في أية حقبة كانت. ولم يكن الشرق في يوم من الأيام كياناً موحّداً هو الآخر. لكنّ التقسيمات الثنائيّة: الذات/الآخر، الغرب/الشرق... الخ، وُلدتْ من رحم ميتافيزيقا التمركز على الذات، ونشأتْ علاقة تفاضلية وتراتبيّة بين طرفَيْ كلّ ثنائيّة، ولعبت المخيلةُ والتصوُّراتُ دوراً كبيراً في تضخيم صورة مفترضة عن الغرب، وكذلك عن الشرق. ومع صعود الحداثة تمّ تفعيلُ الثنائيّات الميتافيزيقيّة، وأخذ التمركزُ حدودَه القصوى التي امتدت إلى العقل والتقاليد والأنثروبولوجيا والتاريخ والجغرافيا وغيرها. وفي سياق البحث عن ماضٍ ذهبيٍّ للذات الأوروبيّة، تمّت عمليةُ إعادةً كتابة تاريخ اليونان القديمة، بوصفها الأصلَ المعرفيَّ والثقافيَّ والحضاريّ لهذه الذات، وجرت عمليةُ إزالةِ كلِّ ما يتّصل بجذورها المتوسطية أو المشرقية. هذا الكلام ليس «مقولةً أكثرَ طرافةً» من مقولات أخرى؛ ولكنّ منطق التعميم الذي اتبعه «ضاهر»، وعدمَ الاطلاع على منجزات الفكر العالميّ بعد الستينيّات هما اللذان يقودانه إلى مثل أحكامه. وحسبُنا أن نحيل مَنْ يهمه الأمر، مثالاً، على عمل مارتن برنال الضخم: **أثينا السوداء** (الجزء الأول: **تلفيق بلاد الإغريق**، القاهرة، ١٩٩٧)، وعملِ جورج طرابيشي: **نظرية العقل** (دار الساقي، بيروت، ١٩٩٦).

حلب